وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة العربي بن مهيدي -أم البواقي-

مخبر الدراسات الاستشراقية الحماية اللغوية والاجتماعية
بالتعاون مع مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي في النظام التعليمي الجزائري –الواقع والمأمول-

الملتقى العلمي الوطني حول: صورة الشرق في ضوء الدراسات الاستشراقية (الحيادية والتجاوز)

	المتدخل
الاسم واللقب	عبد الحفيظ البار
الرتبة العلمية	دكتوراه فلسفة
التخصص	فلسفة
الوظيفة	أستاذ محاضر "أ"
المؤسسة	جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي
البريد الالكتروني	hafidbarr@gmail.com barr-abdelhafid@univ-eloued.dz

المحور: المحور الثاني (صورة الشرق في العصور الوسطى)
- مرحلة الخروج عن الكنيسة ومحاولة دراسة الشرق بموضوعية

عنوان المداخلة: صورة الإسلام في العصور الوسطى من خلال الكوميديا الإلهية (حقيقة التناقض ودلالة التأثير واستشراف عصر التنوير)

الملخّص:

تتناول هذه المداخلة جانبا مهما من الدراسات الاستشراقية في نهاية العصور الوسطى، إذْ تُوضّح صورة الإسلام والمسلمين عند الفلاسفة والشعراء الغرب الذين كتبوا عن المسلمين برغم من سلطان الكهنوت وسيطرة الكنيسة فمهدوا لعصر تكسّرت فيه جميع الأسيجة الأرثوذوكسية التي قيّدت العقل الغربي.

تلك الصورة التي نأتي للبحث في دلالاتها هي ما قدّمه الفيلسوف الإيطالي "أليجري دانتي"في ملحمته الشعرية "الكوميديا الإلهية"حيث رسم صورا متناقضة عن الإسلام والمسلمين، لكنه بعث من خلالها بإشارات دلالية غاية في الأهمية، إذ بها انتفض الغرب من بعده على سلطان الكنيسة وبدأ عصر النهضة يلوح في الأفق وارتسمت قيم الحداثة والتنوير تلك التي استشعرها المسلمون من قبل بقرون وأوحوا بها للغرب أيقظت الإنسان الأوروبي وخلّصته من براثن الاستعباد الكنسي، كالذي قدّمه ابن رشد وابن سينا وغيرهما فكانت الحضارة الاسلامية فاعلة في التحول الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي شهدته أوروبا بدءا من القرن 14للميلاد، برغم من صور العدوان والكراهية التي لم يتخلص منها الغرب تجاه الإسلام إلى يومنا.

الكلمات المفتاحية:
الاستشراق،العصور الوسطى، صورة الإسلام، الكوميديا الإلهية، أليجري دانتي، ابن رشد، ابن سينا.

Abstract:
This intervention deals with an important aspect of oriental studies at the end of the Middle Ages, and clarifies the image of Islam among Western philosophers who wrote about Muslims even though they were subject to the Church, and with it they were able to remove the restrictions that restricted the Western mind.

We will discuss what the Italian philosopher "Allegri Dante" wrote in his book "The Divine Comedy", where he painted contradictory images about Islam and Muslims, but he sent through them important signals that made the West revolt against the Church later, and the Renaissance era began and the values of modernity appear. These values were referred to by Muslim thinkers before, and they were the reason for the European man to get rid of church enslavement, which was presented by “Ibn Rushd” and “Avicenna”. Pictures of aggression and hatred in the West stubbornly towards Islam.

key words: Orientalism,Middle Ages, Islam picture, Allegri Dante,The Divine Comedy ,Ibn Rushd, Avicenna

صورة الإسلام في العصور الوسطى من خلال الكوميديا الإلـهية
(حقيقة التناقض، دلالة التأثير واستشراف عصر التنوير)

مقدمة:

عادة ما يؤشّر زمنيا لبداية الاستشراق من حيث أنه اتصال الغرب بالحضارة العربية الإسلامية على أنه بدأ في القرن الثاني للهجرة أي السابع للميلاد وهي مرحلة شهدت ظهور ما يسمى بالمجادلات التي تحدّت الإسلام كعقيدة ونذكر هنا ما كتبه الراهب "يوحنا الدمشقي"من مؤلفات جادل بها المسلمين (قاسم السامرائي، 1983، 19).

لكن إذا كان الاستشراق يرتبط بالالتقاء المنظم بين الغرب والحضارة الإسلامية، فإن ذلك يؤشّر له على أنه كان بعد حركة المثاقفة التي دفع إليها فتح الأندلس وانتقال الكثير من المؤلفات العربية الإسلامية عن طريق الترجمة إلى بلاد الغرب، وحدث هذا في القرن الثاني عشر للميلاد.

ينبغي أن نشير هنا أن هذا الرأي فيه جانب من الصواب لأنه بعدما اطلع القساوسة ورجال الدين المسيحي على القرآن والكثير من كتب الفقه تبلورت مفاهيم ومنظورات لدى المسيحين عن الإسلام، أولئك الذين كانوا يحكمون بقبضة أرثوذوكسية على الثقافة الغربية، لذا بنوا تصورات ومواقفا عدائية عن الإسلام ونبيّه وأعطوها الطابع القدسي ضمن عقيدتهم الكهنوتية فشكّلت رافدا مهما في بناء ثقافة الإنسان الغربي وظلت تلك الصورة عند الغرب في هذا الجانب إلى يومنا هذا.

بمعنى آخر أن هذه المرحلة تكاد أن تكون لحظة التحوّل عن ذلك التصوّر النمطي عن الإسلام باعتباره دين له مفاهيمه ورؤاه في العبادات وشؤون الحياة التي تخص المسلمين إلى تصوّر آخر يجعل من الإسلام في مواجهة التحديات العقائدية والثقافية الاجتماعية.

لكن هذا القول ينبغي أن يضاف إليه ملمحا هاما وهو أن جميع التصورات عن الإسلام في نهاية العصر الوسيط استندت إلى خلفية تاريخية تتعلّق بما يسمى الحروب الصليبية، بدليل أن الاستشراق قد شهد تحوّلا في مضمونه بعد تلك الحروب والحملات ليصبح أكثر أرثوذوكسية من ذي قبل، إذ بات نوعا من الكفاح وأداة من أدوات السيطرة ونصرة الدين والحضارة، وابتعد شيئا فشيئا عن أي أمل بلوغ الموضوعية.

إن أغلب المستشرقين في العصور الوسطى كانوا مشدودين بالتعاليم الكهنوتية التي تدعو إل نصرة المسيحية والدفاع عنها باعتبارها العقيدة الخلاصية التي تضمن النعيم للإنسان يوم العرض وتسيّر شؤونه في الأرض، وكلّ ما عداها فلا يكون إلا عقيدة مزيّفة أو انشقاقا وانحرافا وتمرّدا عن الدين المسيحي.

المتتبع لأغلب الدراسات الاستشراقية في بدايات العصر الوسيط ومنتصفه، سيشهد على تلك الصور المشوهة للعقائد الأخرى بما فيها الإسلام، تراها مليئة بالخرافات والقصص الخيالية المسيئة، فهي مرتكزة على جهل مؤسس.

بيد أنه لو استقرأنا التطورات التاريخية من داخل العصور الأوروبية المسيحية ذاتها في حركيتها وانتقالها من مرحلة إلى أخرى، سنشهد أن التحوّل الذي حدث في أواخر العصر الوسيط وأدى إلى انهيار سلطان الكنيسة وانزياح التراث الكنسي والتوجه نحو الاهتمام بالمثل الدنيوية والإعلاء من قيمة الإنسان بدل اللاهوت، وإبراز دور العقل، سنجد أن ذلك التحوّل أسهمت فيه بعض الدراسات الاستشراقية عن الإسلام والمسلمين بصفة خاصة.

حتى وإن جاءت تلك الدراسات بأفكار مشوّهة عن حقيقة الإسلام، إلا أنها تضمّنت صورا متناقضة أبانت عن عور العقيدة المسيحية وفتحت أبواب الاجتهاد وإعمال العقل الغربي وأطلقت العنان لثورة الشك التي هزّت أركان العصور الوسطى وأنذرت بزوال أرضيتها والانتقال إلى أرضيات جديدة شكّلت ثقافة جديدة بعيدة إلى حدّ بعيد عن ذلك التعصّب الأرثودوكسي.

لعلّ الملحمة الشعرية "الكوميديا الإلهية"للشاعر الفيلسوف الإيطالي "أليجري دانتي"خير دليل عن ذلك، فبالرغم من أن "دانتي"لا يزال مشدودا بالكهنوت المسيحي وظهر ذلك في مشاهد كثيرة من "الكوميديا الإلهية"إذ قدّمها كملحمة تحاكي الوصايا الإيمانية معتقدات الدين المسيحي، فهي تجسّد للحظة المحاكمات الإلهية كما نصّت عليها المسيحية في تعاليمها، لذا بعثت في ظاهرها رسائل العداء للإسلام والمسلمين، كيف لا ومشاهد تعذيب نبيّ الإسلام وبعض صحابته في "الكوميديا الإلهية"تشير إلى التعصّب الأعمى والكراهية الكنسية.

لكن الغريب أن "دانتي"الذي جسّد هذا العداء والكبرياء الكنسي في قصته، قدّمها في لغة شعبية بسيطة، ثم وقف على مشاهد أخرى ليس لها صلة بالعقيدة المسيحية على نحو نقيض، حيث مجّد فيها العلم العربي وحكمة المسلمين، متجاهلا عقيدة هؤلاء على الرغم من أنه مشدود بالوصايا والعقيدة الكهنوتية من جهة، ومن جهة أخرى الذين لاقوا التمجيد من العرب المسلمين كانوا أكبر مناصري الإسلام والمدافعين عنه، ويذكر لنا ابن سينا وابن رشد على وجه الخصوص، في مشاهد قد بدت متناقضة.

إن هذه التناقضات الظاهرة والمترامية بين ثنايا الكوميديا الإلهية وخلف مشاهدها الساخرة من الإسلام ونبيّه والممجدة في نفس الوقت لمفكري الإسلام أحالتنا على الكثير من التساؤلات وحفّزت فينا إعادة النظر في حقيقة الكوميديا الإلهية باعتبارها تمثّل صورة استشراقية عن الإسلام والمسلمين، فأردنا أن ننظر فيها بمقاربات تأويلية تداولية لإظهار حقيقة ما كتبه دانتي وأبعاده الدلالية الإحالية.

لأجل ذلك، صغت الإشكالية الآتية: ما حقيقة صورة الإسلام والمسلمين في الكوميديا الإلهية؟ ما الذي تبعثُ به صورها المتناقضة وما دلالاتها؟

للإجابة على هذه الإشكالية، اعتمدت على مناهج متنوعة في وظائفها بين التحليل والنقد، الاستنتاج وبشكل متكامل، فبالمنهج التحليلي، نتعمّق في المفاهيم التي حوتها الكوميديا الإلهية والتي أتاحتها الترجمتين المتوفرتين لـ "حسن عثمان"و"كاظم

جهاد"وأما المنهج النقدي المقارن، فاستوجب علينا استخدام النقد كثيرا فهو من طبيعة الفلسفة، وبالمقارنة نقف على الاختلاف والتناقضات التي توحي بها مشاهد الملحمة المختلفة، لننظر في الأخير نظرة تقييمية، والتي من خلالها نستطيع أن نقف على حقيقة تلك المتناقضات ودلالاتها التي انعكست على العصر الوسيط ومهّدت للعصور اللاحقة.

1- كرونولوجيا العصور الوسطى:

إن التحليل الظاهر للعصور الوسطى يوحي أنها بدأت مع انهيار الإمبراطورية الرومانية والتحول إلى عصر بربري عانت فيه أوروبا من تدهور ثقافي استمر أكثر من أربعة قرون.

بيد أن هذا الإيحاء وعلى الرغم من أنه يتضمن الكثير من الصحة إلا أن هناك حقيقة لا ينبغي القفز عليها وهي أن التراث الكلاسيكي (اليوناني والروماني) لم يتهاوى بل ظل موجودا لكن تأثيره بات محدودا ومحفوفا بالمخاطر، إذ تحوّلت المعرفة والعلم الموروثة إلى ما يسمى بالأديرة.

ثمة حقيقة أخرى أيضا ينبغي الوقوف عندها، وهي أن رجال الدين المسيحي قد حوّلوا ذلك التراث الفلسفي والعلمي إلى نشاط يزدهر داخل الكنيسة، لكن هذا لا يعني أنهم استولوا على ذلك التراث، بل أنه ولقداسة الموروث الثقافي الكلاسيكي في نظر الأوروبيين اتجه من بقي من حملة ذلك الموروث للبحث عمن يحفظه من اكتساح الثقافة البربرية التي بدأت في التغوّل، فرأوا في رجال الدين هؤلاء هم الأقدر على حفظه، لكن ومنذ أن أصبحت المسيحية عقيدة الدولة، حوّلوا ذلك التراث إلى أداة في خدمة الكنيسة وتبرير قضاياها التي لم تقف عند مسائل العقيدة فقط بل ولجت إلى شؤون المجتمع المختلفة، فاكتسبت الكنيسة قداسة السلطة مستغلة الفراغ السياسي الذي تركه زوال الامبراطورية مستفيدة من تهاوي المستويات الثقافية الذي بدأ يفعل فعله في المجتمع الغربي، لذا أصبح رجال الدين الذين حافظوا على ما تبقى من آثار العلم جماعة مميزة لها الحق دون غيرها في القراءة والكتابة وتأسيس المدارس والإشراف عليها(ابراهيم مصطفى ابراهيم. 2000. 57).

على الرغم من أن هناك أنواع أخرى من التراث كافحت لأجل السيطرة ومواجهة رجال الدين المسيحي وإحياء التراث الكلاسيكي، ونذكر هنا التراث الجرماني الذي أسهم في بروز الأرستقراطيات الاقطاعية التي جاءت لتملأ الفراغ السياسي وتكون بديلا للإمبراطورية القديمة، لكن أيّ من هذه الأنواع من التراث لم يكن ممثلا بفلسفة اجتماعية متماسكة لذلك كن عاجزا عن تحدّي سلطة الكنيسة، لكن سلطة الكنيسة هذه اتجهت نحو التناقض فتحوّل الامبراطور الأعظم إلى البابا الإله، وبرزت الثنائيات التي أدّت إلى تقسيم الناس بين رجال اللاهوت والعوام فأدخلت أوروبا عهود الجهل والظلام، في حين كانت حضارة الإسلام تنمو وتزدهر في الجانب الآخر من الآخر من المتوسط حضارة الفتية تزداد قوة وتتوسّع رقعتها لتمتد إلى الهند شرقا وإلى بلاد الأندلس عربا.

ولأن الأقاليم الأوروبية الغربية كانت أكثر قربا واتصالا بالشرق العربي، خصوصا إيطاليا التي شهدت حركة تجارية مزدهرة وتواصلت بها مناطقها مثل جنوة والبندقية وفلورنسا مع شرق المتوسط، وعرفت ازدهارا اقتصاديا وشهدت بروز التعاملات النقدية وتراكمت الثروة، هنا بدأ الاهتمام بمنتوجات الحضارة العربية الإسلامية في كل روافدها ومكوناتها، وبدأ المنتوج الفكري يلازم الحركة التجارية المزدهرة، فانتقلت الكثير من المؤلفات العربية إلى أوروبا، إلى جانب ذلك استيلاء الأوربيين على ذخائر التراث العربي الإسلامي حينما استرد الإسبان الأندلس.

لأجل ذلك بدأ الغرب في أواخر العصر الوسيط يهتمون بحركة النهضة الأدبية والفكرية في الحضارة العربية الإسلامية، فاتجهوا إلى الترجمة وجعلوا من اللغة العربية مبلغ اهتماماتهم باعتبارها لغة العلم والمعرفة، وانطلقت حركة الترجمة من العربية باندفاعية وشوق يحركها جهل عميق ذاك الذي يخالج الأنفس الغربية.

لكن الغرب مازال مشدودا بطرق التفكير الكهنوتية فإن حركة الترجمة التي تنتهي ببلورة تصورات ورؤى غربية عن الحضارة العربية الإسلامية سترسم العلاقة بين الغرب والشرق ستفضي في النهاية إلى تيارين متناقضين، فأما الأول فانتهت فيه الترجمة إلى دراسة الإسلام كدين لا يعرفون عنه شيئا، هنا كان للعقيدة المسيحية التي مازالت تشد العقول وتأسر النفوس أثرا في حركة الترجمة ودراسة العقيدة الإسلامية وسيرة النبي محمد صل الله عليه وسلم إذ بات الموقف المتبنى من أن الإسلام دين جاء منافسا للمسيحية ساعيا للانتقام منها، وعلى الرغم من الإسلام قد بلغ صقلية والأندلس وأفضى عليها مظاهر الازدهار والرقي، إلا أن النظرة التي تم بلورتها بعد الترجمة والبحث بأنه كيان سلبي، وهي نظرة فيها الكثير من التناقض وبعيدة عن الموضوعة.

أما التيار الثاني فهو الذي سار فيه البحث والترجمة نحو أعمال المفكرين خصوصا الفلاسفة العرب والمسلمين من أمثال ابن رشد وابن سينا وأبي العلاء المعري وغيرهم، فلم يكن لهؤلاء المفكرين من نظير في بلاد الغرب في العصر الوسيط، وانتظروا قرونا ليظهر أمثالهم (ديكارت وبيكون وغاليلي..) بل كانت لأعمالهم الدفعة القوية في بزوغ عصر النهضة الأوروبية، وقد تميّزت تلك الترجمة والأبحاث بجانب كبير من الموضوعية.

2- الإسلام في الكوميديا الإلهية لأليجري دانتي (المشاهد المتناقضة):

يجسّد لنا الفيلسوف والشاعر الإيطالي أليجري دانتي (1265-1321) في ملحمته الشعرية "الكوميديا الإلهية"النموذج الذي يحمل تناقضا في تصوّره للحضارة الإسلامية، وقد حمل كتابه الشهير جميع الأفكار التي تعكس تصوّر "دانتي"للإسلام تتأرجح بين الصورة النمطية التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية والمتعلقة بالإيمان المسيحي تلك التي تحكم المجتمع الغربي ومازال هو مشدودا إليها، كما تبعث مشاهده الساخرة عن الجحيم الذي سيلاقيه نبيّ الإسلام وصحابته من جهة، وفي مشاهد أخرى يتحدث عن خلاص الرجال الأبطال والمفكرين من المسلمين الذين أبعدهم عن

العذاب والجحيم من جهة أخرى، بكلها تبعث رسالات عديدة سنأتي إلى تفصيلها في العنصر اللاحق.
لقد جاءت الكوميديا الإلهية في ظاهرها من خلال صورها ومشاهدها محاكاة للإيمان المسيحي الذي كان سائدا وتجسيدا للحظة المحاكمات الإلهية وبلوغ المصير، ولأن المسيحية تؤمن بأنه من مات مرضيا عليه من ربه فإن روحه تسكن في النعيم ومن مات ولم ينل الرضى الإلهي فإن روحه تسكن الجحيم محرومة من رؤية الرب، لذا حاول دانتي ترجمة هذا الاعتقاد في صور خيالية عن تلك الحياة الغيبية، في مشاهد ثلاثة رئيسية هي (الجحيم والمطهر والجنة)، والمغزى المباشر لهذا العمل هو تمثيل حياة الأرواح بعد الموت في زمن الخلود السماوي.
غير أن دانتي أسرّ على كتابة هذه الملحمة الشعرية الخيالية بلغة عامية بعيدا عن الكتابة المملوكة من رجال الكنيسة وحدهم، ويبدو أن له في هذا مآرب كثيرة بعيدا عن الإيحاء الذي يبعث به عمله الضخم، والذي سنأتي إليه حينما نفصّل في مدلولاته الضمنية.
في حديثه عن الجحيم، يتطرق إلى مكان يسميه بالشفاء ويعرض فيه أرواح الوثنيين الذين ماتوا قبل أن يعرفوا العقيدة المسيحية، والذين يجعلهم من أهل الفردوس مع الرب الذي رضي عنهم، لكن يضيف إلى هؤلاء أولئك الذين اشتغلوا على الفلسفة والحكمة أو الذين تميّزوا بالبطولة وهنا يذكر من المسلمين ابن رشد وابن سينا وصلاح الدين الأيوبي، أما نبي الإسلام الرسول محمد صل الله عليه وسلم وصحابته، فقد تمثّلهم في قاع الجحيم، والجحيم في تصور دانتي هي حفرة دائرية الشكل تتضمن تسع طبقات ولكل طبقة خطاياها، والخطايا مرتبطة بالشرور كما تحددها العقيدة المسيحية، فأخفها القمع وأثقلها الانغماس في الشهوات والغش، أما العقاب فيكون من جنس الخطيئة.
لذا تمثّل دانتي الشعراء والفلاسفة الذين جهلوا المسيحية بأنهم لا يستحقون الجحيم لكن لن ينالوا النعيم، بل يعيشون في عالم الرغبة، أي الرغبة الدائمة نحو الحق وهو عالم كثير الحسرة، بينما الرسول صلّ الله عليه وسلّم وصحابته فيمثّلهم بصورة الدجالين من أصحاب الشقاق والفرقة الذين وجب - في نظره - العقاب الإلهي.
لقد سخرت الكوميديا الإلهية من عقيدة المسلمين حينما حملت مشاهد (الجحيم) أو ما يسميه "دانتي"عالم الذنوب ، صورا لعقاب نبيّ المسلمين وأحد أقرب الناس إليه وخيرة صحابته الأجلاء عليّ رضي الله عنه، واللذيْنِ اعتبرهما مصدر الذنوب والشرور، فكان المشهد قاسيا والذي ظهر في التمثيل بجسديهما، في حين كانت بقية المشاهد تمجّد الفلاسفة والمفكرين من المسلمين بحجة أنهم امتلكوا القدرة على التفكير والإدراك والفهم.
لكن ما حقيقة من تلك المشاهد وما غايتها وأبعادها وتداعياتها الاجتماعية والفكرية؟.

3حقيقة التناقضات (بين الظاهر والخفي):

إذا أخذنا المشاهد التي حوتها الملحة الشعرية للكوميديا الإلهية لدانتي - التي قدّمت صورا عن الإسلام كعقيدة وكفكر للإنسان الغربي- برؤية تأويلية تداولية، فإننا سنقف على عدّة عوامل متشابكة متداخلة كوّنت تلك الظاهرة الملحمية، وإذا ما ربطناها بالثقافة السائدة في العصر الوسيط والتي شكّلت عقلية الإنسان الغربي وثقافته فإننا سنقف على عدّة حقائق مكنونة مركونة وراء تلك المشاهد قد لا تبدو في صورتها الظاهرية التي توحي بها ، وإنما كشفت عليها التغيرات التي حدثت مباشرة في المجتمع الغربي والتي كانت سببا في انهيار سلطان الكنيسة والتوجه إلى ما يسمى بالأنسنة أو الحركة الإنسانية وإحياء التاريخ الفلسفي والإعلاء من سلطان العقل، لذا سنأتي إلى ذكر العناصر الآتية:

1.3السخرية من الإسلام (الحقيقة الظاهرة):

تلك المشاهد الساخرة عن الإسلام وصرها حول تعذيب الرسول والتمثيل بجسده هي في حقيقتها تعبير عن جوهر العقيدة المسيحية القائمة على ثنائية اللاهوت والناسوت، وأن الجسد هو مصدر الذنوب وسجن الروح وأن تعذيبه هو ثمن خلاصها، وهي مستوحاة مما تذكره النصوص الإنجيلية التي كتبها رجال الدين المسيحي وهي أن المسيح قد دفع بجسده لخلاص البشرية، وبالتالي فإن هذه المشاهد موجّهة للإنسان المسيحي والعامي بدرجة أولى خصوصا وأن دانتي تعمّد كتابتها بلغة شعبية.

إن هذا المحتوى مرتبط بالتكوين الديني والثقافي لــ "دانتي"فهو الذي تكوّن على الحلقات اللاهوتية التي كان يرتادها، فهذه المشاهد تجسيد السيطرة والهيمنة الكنسية على كل ما يمتلكه الناس وفرض العقيدة الواحدة ومنحها القوة والقداسة حتى صار الباباوات يتحكمون في الناس في الأرض ويوم العرض.

لذا كان الإسلام في نظر رجال الدين المسيحي يمثل تهديدا فعالا للمسيحية، وسعوا إلى تقديمه على أنه دين زائف وتصويره بكل الصور السيئة وحاولوا قطع الطريق أمام تمدّده وانتشاره، فكانت الافتراءات على الرسول صلّ الله عليه وسلّم التي حوتها مشاهد "الكوميديا الإلهية"بطريقة غير مسؤولة ومليئة بالخرافات.

ذلك امتداد لاعتقاد ساد في القرن 12أن رسول الإسلام - صلّ الله عليه وسلم- كان رجل دين روماني لكنه ارتد وأسس مذهبا منشقا عن الديانة المسيحية، وما ساعد من انتشار هذه الخرافات وسيادتها هو استسلام العقل الغربي لسلطان الكنيسة، فتكوّنت ثقافة غربية سلبية عن الإسلام ونبيّه (James Kritreck. 1964. P89) ويبدو أن الكنيسة قد نجحت في ذلك إذ رغم أن "دانتي"في مؤلفه هذا حاول أن ينتصر للفلاسفة والحكماء من المسلمين لكنه بقي مشدودا بهذه الأسيجة الأرثوذكسية.

لم يكن "دانتي"قادرا على أن يتخلّص من الثقافة التي كوّنتها الكنيسة عن الإسلام ونبيّه في صورة مشوهة، فالعلماء والقساوسة في العصر الوسيط اتجهوا إلى الكتابة – التي كانت حكرا لهم دون غيرهم- فكتبوا في الكثير من ألوان الأدب خاصة الشعبي مؤمنين بأن الروايات هي التي تؤثر على العقل الرومانسي من خلال التركيز على ما يمثّل نوعا من الدعاية بإظهار قوة الدين المسيحي وقدراته الخلاصية وتزييف الدين

الإسلامي وبيان فشله وهزائمه، خاصة في ظل الانتصارات التي بات يحققها المسلمون فيما يسمى بالحروب الصليبية، هذه الروايات ولأنها جاءت في حبك خيالية غرائبية صدقها الإنسان الغربي شكّلت رافدا مهما في تكوين ثقافة عصره، والتي يبدو أن "دانتي"مازال مشدودا إليها وفعلت فعلها في تأليفه لمؤلفه هذا من خلال تلك المشاهد الساخرة.

هكذا تكون قصة "الكوميديا الإلهية"ذاك المؤلف الضخم لدانتي قدمت صورا مشوهة عن الإسلام تعبّر عن ثقافة كرّستها الكنيسة ودأبت على محاربته، وكان هناك من العرب من اشتغل على ترجمة "الكوميديا الإلهية"وتعمّد على اسقاط المشاهد المسيئة للإسلام ونبيّه ونذكر هنا "حسن عثمان"الذي اعترف بإسقاطه للأنشودة 28من القصة مبررا ذلك بأنها لا تستحق الترجمة وقد أخطأ فيها دانتي خطأ جسيما متأثرا بثقافة عوام عصره(أليجري دانتي، 1955، 673).

2.3تمجيد الفكر الإسلامي (الحقيقة المخفية):

لكن في المقابل كان "دانتي"يدرس فلسفة القديس توما الإكويني الذي كان معلما جمع بين الفلسفة الأرسطية والدين المسيحي وربط الميتافيزيقا اليونانية بقضايا الدين والأخلاق، وانتهى به المطاف إلى أن اعتبر ارسطو هو من نفخ فيه محبة الفلسفة ووصفه في كتابه الكوميديا الإلهية بسيد العارفين، والترابط بين الفلسفة والدين هو الذي جعله يقبل على مؤلفات "ابن رشد"فجميع شروحاته ومؤلفاته كانت قد وصلت إلى أوروبا في ظل حملات البحث والترجمة التي انطلقت لفهم حقيقة هاته الحضارة الفتية التي بدأت نزدهر وتتوسع شرقا وغربا.

ولأن "دانتي"أبان على استعداده على التعلم من العرب – كغيره من المفكرين الذين بدأوا ينظرون إلى العلم العربي بإعجاب وانبهار- توسّعت معارفه مستفيدا من حركة الترجمة التي بعثت بها حركة التجارة التي ازدهرت في الغرب الأوروبي أسهمت بدورها في حركة المثاقفة بحكم التلامس بين الثقافتين المختلفتين، وشكّلت دافعا قويا أدى إلى بروز روّاد النهضة، ولهذا جاءت مشاهد كثيرة من الكوميديا الإلهية تمجّد الفكر الإسلامي والمفكرين برغم بعدهم عن الدين المسيحي.

لقد وضع "دانتي"كل من ابن رشد وابن سينا مع سقراط وأفلاطون وأرسطو في درجة واحدة، وأبانت مشاهد الكوميديا الإلهية أن هؤلاء لو قدّر لهم أن اعتنقوا المسيحية لكانوا من ذووا النعيم، ولأنهم قد جهلوا بها فإن هذا لا يعني أنهم من أهل الجحيم بل سيشفع لهم ما بلغوه من حكمة وعلم ليعيشوا في الدار الآخرة بعيدا عن لهيبها.

يبدو أن الكوميديا الإلهية في تصويرها لمفكري الإسلام وباعثي العلم العربي قد تغاضت عن الانتماءات الدينية، وهنا نجد أن الكثير مما ذكره وتحدّث فيه عن الأخلاق والإرادة الحرة والذات الإلهية قريب مما جاء به ابن رشد في شروحاته، مثلما يقدم الكثير من التبجيل لتفوّق العلوم العربية الإسلامية التي لم ترق إليها العلوم الغربية بعد، ويأتي على الكثير من أفكار ابن سينا في الطب والمنطق.

ليس غريبا أن تستثني الكوميديا الإلهية "ابن رشد"من المشاهد الساخرة التي حملتها على الإسلام ونبيّه - في تجاهل واضح لعقيدته كأن ابن رشد لم يكن على دين الإسلام- ذلك أن الحلقات اللاهوتية التي كان يرتادها "دانتي"وتعلّم فيها اللاهوت كانت تحتكر الفلسفة في الدير والكنيسة وتوظفها لخدمة قضاياها، ولا غرابة أن يجد اللاهوتيون المنطق الأرسطي أداة فعالة في تبرير قضايا الدين المسيحي (Moevs Christian . 2005.p84)،لكن تعلّم المنطق في الدير كان على وقع الفكر الرشدي، فكتب ابن رشد هي التي شرحت للغرب المنطق الأرسطي وجعلتهم على مقربة من قضاياه ومباحثه، لذا كان لزاما على اللاهوتيين وتلامذتهم حينما يمجدون أرسطو ألا يسيئوا لأبن رشد وأن يتغاضوا على عقيدة دينه.

ففي القضايا الفلسفية التي تترامى في مشاهد الكوميديا الإلهية تبرز الأسئلة الفلسفية التي نشأ عليها دانتي، ويبرز تأثره بابن رشد Greenfield , Concetta (Carestia. 1981. 73)ويظهر التأثير حينما استخدم العقل في تبرير قضايا الإيمان، ووظّف الإيمان للمعرفة، واعتبر الفلسفة خادمة للاهوت، هذا الترابط هو الذي شدّ "دانتي"لابن رشد، على الرغم من الاختلاف الظاهر بينها في الكثير من المسائل الفلسفية والإيمانية التي أوحت بها الكوميديا الإلهية، كحديث دانتي عن الأرواح في مقابل حديث ابن رشد على العقل الكوني الذي يوجه الأرواح (ابن رشد، 2000، 69. 70) ، لكنه بقي وفيا للفيلسوف الأندلسي حينما يضع في مشاهد النعيم أو الفردوس مدائح تعود لرجال رشديين ومنهم المفكّر الرشدي "سيغر البرابانتي"(أليجري دانتي، 650)

في حديث "أليجري دانتي"في الكوميديا الإلهية عن خلود الروح في قسمها الثالث 'النعيم"يستخدم براهين استقاها من الرواقيين والأفلاطونية المحدثة ومن ابن سينا (Nardi 1949 , p.284) فلقد كان لابن سينا الأثر العظيم في تفكير الغرب في العصور الوسطى، خصوصا مؤلفه الضخم "الشفاء"الذي قدّم شروحا تفصيلية لكتابات أرسطو، بالإضافة إلى كتبه "النجاة"و"المباحثات"و"الارشادات والتنبيهات"وكذا كتبه الضخم "قانون في الطب"الذي كان له تأثير منقطع النظير على أوروبا الوسيطية والحديثة وما بعدهما، إذ يكاد المطلع عليه لا يجد إفلاتا لمصطلح أو نظرية في الطب الحديث والمعاصر(عاشور سعيد عبد الفتاح ، 1986، 200).

4الأبعاد الدلالية الإحالية لتناقضات صورة الإسلام في الكوميديا الإلهية:

مازال "أليجري دانتي"مشدودا بتعاليم الكنيسة ولم يكن يملك من الشجاعة حتى أن يواجه سلطتها المتغولة في شؤون الحياة والقابضة على مصير المجتمع الغربي بأكمله، لكن بين ثناياها تختفي دلالات مختلفة ولها أبعاد فلسفية وثقافية ستنتهي بأن يزال سلطان الكنيسة وتتأسس ثقافة جديدة يعاد فيها إحياء التراث الإنسان وتتوجه

الإصلاحات الكنسية إلى كشف حور الكهنوت الذي جثم على المجتمعات الغربية حينا من الدهر، ذاك الذي سنكشف عنه فيما يلي:

ينكشف تأثير العلم العربي على دانتي وهو متستّر خلف ملحمته الشعرية الخيالية، فإن بدا أنه في مشاهدها يسخر من الدين الإسلامي ونبيّه محمد صلّ الله عليه وسلّم فإنه في الحقيقة هو سخرية من رجال الدين المسيحي ودعوة ضمنية للمجتمعات الغربية أن تنهض من التخلف والجهل القابعين على الأنفس والعقول، وما يؤكد ذلك هو أنه حينما تقرأ مؤلفه الكوميديا الإلهية فإنك تلحظ المتناقضات المترامية بين مشاهد الملحمة والتي بعث بها "دانتي"عن قصد، فكيف له أن يصوّر نبي المسلمين في الجحيم ويصوّر أصحابه وأتباعه في منأى عنها، فإذا كان في مشهد الجحيم قد تحدّث عن النبي صلّ الله عليه وسلّم وعن علي كرّم الله وجهه وهما يلاقيان العذاب ويتم التمثيل بجسديهما، فإنه في مشهد الجنة والنعيم يتحدث عمن دافع عن الإسلام بالسيف والفكر ويذكر لنا صلاح الدين الأيوبي وابن رشد وابن سينا ويخرجهم عن دائرة الجحيم ويتغاضى عن الإسلام الذي أوحى لهم ما انتهوا إليه من علوم وحكم.

إن الحقيقة المتوارية عن الأذهان والأنظار في مكمن هذا المؤلف الضخم، هو أن تلك السخرية التي ساقها لنبي الإسلام، إنما هي رسالة تعلّم المسيحين العوام الذين منعوا من حقوقهم في التفكير والتنظير أن يشككوا فيما حملته عقيدتهم ويفتح باب الخدش في مقدساتها طالما أن السخرية قد طالت عقيدة الإسلام ذلك الدين الذي يعرف الانتشار والتمدد وهو على أبواب أوروبا وأسوارها.

لذا جاءت الكوميديا الإلهية بلغة شعبية بسيطة حتى تلتقطها أذهان العامة لتصبح متاحة للجميع حتى أولئك غير الملمين باللغة اللاتينية، ولوكان الغرض الأول من مشاهد الملحمة التي ألفها دانتي هو تمجيد المسيحية والتقرب من رجال الدين المسيحي لاكتفى في كتابتها باللغة اللاتينية التي هي حظ الدير والكنيسة.

وما يؤكد ذلك، من أن الكوميديا الإلهية كان غرضها تأليب المجتمع الغربي على الكنيسة وليس تعبيرا عن قناعات دانتي وإيمانه، هو أن أحداث الكوميديا الإلهية تتحدث عن نشور الروح، في حين أن ما يعتقد به دانتي وأخذه عن توما الإكويني في أنه لا نشور للروح، وبالتالي لا أساس للكوميديا الإلهية كبديهية إلا مجازا.

إن الأبعاد التي حملتها الملحمة الشعرية "الكوميديا الإلهية"التي ألفها "دانتي"تجلّت في بعثها في نفوس العامة القابعة في الجهل الكنسي المؤسس القدرة الشك في الرسائل الكهنوتية وإمكانية الخدش فيها، وأن اللغة والكتابة خرجت من الدير والكنيسة وأضحت حظ الجميع، وهذا الذي أسهم في ظهور القصائد الشعرية التي انطلقت في تطهير العقول من الوصايا فظهرت قصائدا لــ "لوكاتشو جيوفاني"وكتاب الأغاني لــ"بترارك"الذي مهد فيه لإحياء تراث المشاهير من اليونان والرومان، وتحت تأثير "ابن رشد"و"ابن سينا"بدأ النزول عن الإلهيات المقدسة - التي اختص بها رجال الدين- والانزياح عن التراث الكنسي والانتقال إلى المثل الدنيوية واشتغل

المفكرون على الاهتمام بثقافة القدماء وأصبح الإنسان موضع الاهتمام لكل عمل فني أو أدبي أو تاريخي.
لقد كان للصورة التي حملتها "الكوميديا الإلهية"عن الإسلام والمسلمين - بعيدا على إيحاءاتها الظاهرية - تأثيرا شاملا على عامة الناس الأمر الذي كوّن القدرات العقلية الهائلة لدى الإنسان الغربي تنطلق من الشك الذي سيكون له دورا عظيما في ميلاد عصر النهضة والحركة الإنسانية التي بدورها شكّلت أرضية الحداثة وعماد بيانها، والتي انتهت بعصر الأنوار بجميع قيمه الإنسانية.

خاتمة:

بدأ اتصال الحضارة الغربية الأوروبية بالشرق عند ازدهار التجارة، ساعد في ذلك القرب العربي من الغرب وإطلالته على البحر المتوسط،، خصوصا الأقاليم الجنوبية من أوروبا وبالضبط إيطاليا التي شهدت حركة تجارية مزدهرة، وتحقق الالتقاء

المنظم بين الحضارة الإسلامية والغرب عند فتح الأندلس، لتشكّل تلك الفترة منعطفا هاما في تاريخ الاستشراق.
إذ بدأ اهتمام الغرب بالحضارة العربية الإسلامية ومنتوجاتها الفكرية المتنوعة، بعدما أصبحت هناك حركة مثاقفة مع ولوج الكثير من المؤلفات العربية إلى أوروبا، خصوصا في القرن الثاني عشر للميلاد مع بداية حركة الترجمة.
إن الحضارة العربية الإسلامية ما كان لها أن تزدهر لولا استنادها على روافد معرفية وأدبية وفنية وعلمية ودينية التي شكّلت تراثا فكريا ضخما هائلا قوّى من حضارتها ومدّها بأدوات السيطرة وقوّى بحثها لاكتشاف المجهول، فاحسّ الغرب بأن هذا القادم من الشرق ماض في التمدد غربا وشرقا، له خصوصياته الثقافية لكنه متمسك بأداة العلم ومدرك لشؤون الحياة.
ومع البداية الفعلية للاستشراق عند ترجمة القرآن وبعده كتب السيرة والمؤلفات الأدبية والفلسفية، اتجه رجال الدين المسيحي الذين لايزالون يمسكون بمفاتيح المجتمع الغربي ويغلقون عليهم بالثقافة الكهنوتية، إلى تشكيل رؤية مشوّهة عن الإسلام ونبيّه منطلقين من خلفية تاريخية ترتبط بالحروب الصليبية محاولين صياغة تلك النظرة الشمولية وجعلها ضمن عقيدة المجتمع الغربي.
لكن كانت هناك محاولات في نهاية العصور الوسطى، شكّلت منعرجا هاما نحو التحرر من التراث الكنسي فاتجهت إلى بلورة صورة عن الإسلام لكنها في ظاهرها تتماشى والعقيدة الكهنوتية المسيطرة، لكنها في مضمونها تبعث برسالات للمجتمع الغربي على ضرورة التفتح على الحضارة الإسلامية والتمرد عن سلطان الكنيسة.
إن القراءة التي قدمها الفيلسوف والأديب الإيطالي أليجري دانتي عن الإسلام في ملحمته الشعرية "الكوميديا الإلهية"لم تُظهر في شكلها الصورة المتجانسة عن الإسلام والمسلمين، فهي تبعث بصور متناقضة تارة بين التشبث بالتصور الكهنوتي الذي رسمه القساوسة والكهنة عن الإسلام باعتباره دينا منافسا وجعلوا من محمد صلّ الله عليه وسلّم هدفا لزيفهم وافتراءاتهم، فالتصوير الشهير الذي رسمه "دانتي"في قصته "الكوميديا الإلهية"يعد علامة كنسية مألوفة تعبّر عن الكراهية والعداء.
لكن يبدو أن "دانتي"استغلّ هذه العلامة المرسومة والمنشودة من طرف رجال الدين المسيحي في الكراهية للدين الإسلامي في تأليب العوام على الكنيسة برغم من أنه مازال مشدودا بتعاليمها، إذ أنه بخدشه في الإسلام والمسلمين وبلغة شعبية، شجّع الغرب المسيّج بأسيجة القهر والاستعباد الكنسي على التطاول على الوصايا المسيحية، إذ كيف نفسّر أن مؤلف دانتي الضخم كُتب بلغة عامية جعل الكلمة في متناول الجميع، مما أتاح السخرية من العقيدة المسيحية والخدش في تعاليمها لدى الجميع، وهذا الذي مهد فيما بعد لحركة الإصلاح الديني مع "مارتن لوثر"و"كالفن"، واطلق العنان لثورات الشك وأدى إلى ظهور الشعر الغزلي مع

"لوكاتشو"و"بترارك"وبدأ الحديث عن العودة إلى المثل الدنيوية والانزياح عن التراث الكنسي، مما أشر على بداية النهاية للعصر الوسيط.
في المقابل قد بعثت الكوميديا الإلهية لدانتي دلالات إحالية من خلال صور أخرى تجلّى فيها التقدير للعمل العربي ولا سيما عددا من العلماء والفلاسفة كابن سينا وابن رشد، تلك الدلالات إنما تتعلق بأن العرب هؤلاء قد استشعروا شروط النهضة وقيم الحداثة والتنوير والتي تطلّب لظهور المنادين بها في أوروبا قرونا طويلة، فابن رشد في شروحاته عن ارسطو وابن سينا في كتاباته عن الطب أعطيا قيمة للإنسان ومكانة للعقل وهما قواما الحداثة وأرضيتها الصلبة التي لم يكن لها أثرا في الفكر الغربي في تلك العصور.
هذا الذي كان يريده "دانتي"المتديّن في قصته "الكوميديا الإلهية"بعيدا عن الجرأة والتمرّد، كان يبعث برسائل مهدت للحركة الإنسانية وعصر النهضة وقيم الحداثة، ممجدا ما قدّمه المسلمين تمجيدا على الرغم من أنه كان ملفوفا بالتعصب الديني المفروض.

قائمة المراجع والمصادر

1 - ابراهيم مصطفى ابراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2000.

2 - ابن شد أبو الوليد، الشرح الكبير لكتاب النفس لأرسطو، نقله عن اللاتينية إلى العربية إبراهيم العربي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس2000.
3 - أليجري (دانتي) الكوميديا الإلهية، ترجمة حسن عثمان،، ترجمة كاظم جهاد، النشيد 28، ص673.
4 - أليجري (دانتي) الكوميديا الإلهية، قسم المطهر، ترجمة كاظم جهاد، النشيد 25، الأبيات 61.65ص650.
5 - السامرائي قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والإفتعالية، دار الرفاعي، ط 1، الراض، 1983.
6-سعيد عبد الفتاح عاشور، حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1986 .
7- James Kritreck : Peter the venerable and Islam, Princeton, University Press, 1964.
8- Greenfield (Concetta Carestia) , Humanist and Scholastic poetics 1250-1500 , Bucknell philosopher University Press , Pennsylvania , 1981, p.73
9- Moevs (Christian) , The Metaphysics of Dante's Comedy, Oxford University Press, Oxford , 2005 , p.85.
10- Nardi (Bruno)Dante e la cultura Medievale. Laterza editori , Bari , 1949 , p.284.